مكتبة

الشيخ كشك

الناس بخير ما تناصحوا

المكتب المصري الحديث

الناس بخير ما تناصحوا

الناشر: المكتب المصرى الحديث
٢ شارع شريف عمارة اللواء بالقاهرة تليفون ٧٥٤١٢٧
٧ شارع نوبار الاسكندرية تليفون ٢٦٦٠٢

عبد الحميد كشك

الناس بخير ما تناصحوا

« ومن احسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال اننى من المسلمين »

صدق الله العظيم

المكتب المصرى الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً ، وأشهد أن لا إله إلا الله هو الواحد فى ذاته لا قسيم له ،الواحد فى صفاته لا شبيه له ، الواحد فى أفعاله لاشريك له سبحانه علا فقهر وبطن فخبر وملك فقدر ، وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا وحبيبنا محمداً رسول الله وحد المسلمين صفاً وهدفاً وحذر من الفرقة والتمزق فقال عليكم بالجماعة ، إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية . صلى الله عليك يا رسول الله وعلى آلك وأصحابك أجمعين .

أما بعد :

فهذا كتاب سميته (الناس بخير ما تناصحوا) نبهت فيه على أمور انصرف الكثير عنها فقد أهملوا الجانب الخلقى فى العبادات واهتمت الكتب بشروط الوجوب والصحة ولم تحدثنا عن شروط القبول وهى ما أعظمها فى ميزان العمل كما ذكرت دعوة الإسلام إلى التسامح وما أعظم التسامح فى شرع الله .

ثم ختمت الكتاب بنصائح للعاملين فى مجال الدعوة ووصفنا الدواء بعدما شخصنا الداء . إن الداء عظيم فلابد أن يكون الدواء على نفس المستوى وقد جاء الدواء عظيما لأننا اقتبسناه من هدى الكتاب والسنة وإذا كنا أصبحنا فرقاً وشيعاً فإن القلوب إذا أخلصت الوجهة إلى الله وتجردت لدعوته جاء الدواء صحيحاً وكانت العافية من الداء أكيدة المنال فما أغلى النصح وما أعظم النصيحة . أسأل الله أن ينفع بما قلنا وأن يتقبل أعمالنا فى الصالحين إنه قريب مجيب سميع الدعاء .

هذا كتاب قصدت به وجه الله تعالى ورضاه فليس بعد رضا الله تعالى شيء يبتغى . (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا) .

وهؤلاء هم الذين حكم الله لهم بالرضا عنهم . قال الله (هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم) .

عنايـة الإسـلام
بالجانب الأخلاقى فى العبادات

المتأمل بنظر ثاقب وعقل صائب فى جانب العبادات الإسلامية يجد أن هناك هدفاً وغاية من أهداف العبادات وغاياتها أصبح ظاهراً كالشمس فى ضحاها ألا وهو الجانب الأخلاقى ولنفصل هـذا المعنى تفصيلا يوضح مراميه .

أليس الإسلام قد بنى على خمس : الشهادتان ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت . فتعال معى لنقف أمام الجانب الأخلاقى فى هذه العبادات حتى نقر مزعنين بصحة ما ورد عن سيد المرسلين : « إنمابعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

الشهادتان ، هما شهادة التوحيد والإقرار بالنبوة لصاحب الرسالة العصماء فمن اعتقد بوحدانية خالقه اتصف بأنه عزيز لا يعبد إلا الله معتقد أنه لا يملك الضر والنفع إلا الله متمسك بقوله جل شأنه (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) . والشهادة بأن محمداً رسول الله فيها القدوة ومن أحسن من رسول الله قدوة(لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً) وفى القدوة خلق يكسب صاحبه تخلقاً ومن أحسن من رسول الله خلقاً . لقد مدحه الله تعالى بما منحه فقال : و(إنلك لعلى خلق عظيم). وفى التخلق تذوق ومن أسلم من رسول الله ذوقاً وفى التذوق تحقق وهذه هى الغاية القصوى من تربية الفرد المسلم ومنطقة

الأمان التى ينشدها الدعاة الصادقون . فنى القرآن الكريم موطنان أولهما يأمر باتخاذ الفرد قدوة والثانى يأمر باتخاذ الجماعة قدوة . فنى الموطن الأول يقول تعالى (لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة) . وفى الموطن الثانى يقول تعالى (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) . ثم ماذا ؟ (تراهم ركعاً سجداً) ماذا يريدون ؟ (يبتغون فضلا من الله ورضواناً) .

معرفة مجردة من أى غرض أو رياء ما علامتهم ؟ (سيماهم فى وجوههم من أثر السجود) تلك هى الجماعة الصالحة النافعة المثمرة نشأت فى رضوان الله وتربت على عين الله إنها شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء مثمرة تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ثابت على كلمة التوحيد لا تعرف الشر ولا الضرر (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) إن هذا النبت الصالح الذى أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعطينا دروساً فى الحياة وللدعاة خاصة. أول هذه الدروس أن يكون الداعية صبوراً لا يعرف اليأس إلى قلبه سبيلا. هل هناك نبات يؤتى أكله طفرة ويثمر فجأة. لا ، بل لابد أن يأخذ أطواره كاملة كما تقتضى السنة الإلهية ولكى يأخذ النبات أطواره لابد أن يتعهده الزارع حتى يستوى على سوقه . والنبات هنا ضرب الله به مثلا لأتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن فيه دروساً ناجحة وناجعة لمن أراد أن يذكر . أولها أن المسلم عضو نافع فى مجتمع لا تعرف السلبية إلى نفسه سبيلا . ألم تقرأ قوله تعالى (تؤتى أكلها) ولم يقل تثمر ثمرتها ،

أى أنها لا تثمر لنفسها إنما تثمر لتؤتى غيرها . وفى النبات خلق الصفح والتسامح ألم تر إلى قول أحد الحكماء « يا أيها الناس كونوا مع الناس كالشجر يرمونه بالحجر فيرميهم بأطيب الثمر » .

أليس هذا هو المعنى السامى الذى يرتفع بنفسه عن الأنانية وحب الذات . وفى النبات معنى التوكل واليقين فى الله ألم تر إلى قوله تعالى : (بإذن ربها) من ثم قال تعالى فى عقيدة المسلم (كشجرة طيبة) وقال فى الجماعة المسلمة (كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه) وهذا ما تدلنا عليه كلمة التوحيد والرسالة وما نأخذه منهما من جوانب خلقية ترتفع بنفس المؤمن من حمأة الطين وكثافة المادة إلى ما فوق قبة الفلك ولطافة الروح .

الجانب الأخلاقي

في الصلاة

اذكر وأنا أقرأ كتب الفقه فى الدراسات الإسلامية أننى كثيراً ما سألت نفسى : أين الجانب الروحانى فى هذه الكتب وهو الجانب الذى يسرى فى نفس المسلم إذا قرأ أحكام الله سريان ماء الورد فى الورد أو سريان ماء الحياة فى العود الأخضر .

لماذا أصيبت هذه الكتب بهذا الجفاف ولماذا افتقدت هذا الجانب الذى يتفيأ الإنسان تحته ظلا وارفاً ظليلا على وجه المثال. إذا تكلمت عن الصلاة تراها فجأة تدخل بك فى اصطلاحات جافة تعرفها لغة وشرعاً قبل أن تذكر لنا الأثر الروحانى الرفيع فى الصلاة وما ورد فى شأنها من إجلال الله لها ورفع مكانتها حتى أنها فرضت فى ليلة المعراج بعد ما عبر الرسول منطقة سدرة المنتهى ، وكتب الفقه إذا تحدثت عن شروط الصلاة تتحدث عن شروط وجوبها من الإسلام والبلوغ والعقل وعن شروط صحتها من دخول الوقت والطهارة وستر العورة واستقبال القبلة ونسيت أو تناست عن عمد أهم الشروط وهى شروط قبولها، فكم من مصل يصلى وليس له من صلاته إلا ركوع وسجود يموت كل منهما قبل أن يسلم التسليمتين ، وكم قائم بالليل ليس له من قيامه إلا السهر وهكذا يصاب المسلمون فى كتب الفقه ما يجعلهم فى لهو وغفله عن أهداف العبادات والمعاملات ،والأمثلة على ذلك كثيرة لا تحصى متعددة لا تستقصى وكم

سألت نفسى أكل صلاة مقبولة ؟ أم أن للصلاة شروطاً لابد من توافرها لكى يقبلها الله من صاحبها وتأملت وما تلك الشروط ؟ وعلمت أن للصلاة شروطاً لابد منها لتقبل، وقد جاءت هذه الشروط فى حديث قدسى جليل يقول فيه رب العزة (إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع بها لعظمتى، ولم يستطل على خلقى، ولم يبت مصراً على معصيتى وقطع نهاره فى ذكرى ورحم المسكين وابن السبيل والأرملة ورحم المصاب، ذلك نوره كنور الشمس أكلأه بعزتى واستحفظه ملائكتى أجعل له فى الظلمة نوراً وفى الجهالة حلماً ومثله فى خلقى كمثل الفردوس فى الجنة).

إن جلال هذا الكلام وجماله وكماله يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار. فلو تأملت معى شروط قبول الصلاة علمت أن المصلين لو عملوا بها ما كان بين الأمة جائع ولا عريان ولا مغبون ولا مهضوم ولا قفرت الجفون من المدافع ولاطمأنت الجنوب فى المضاجع ولمحت الرحمة الشقاء من المجتمع كما يمحو نور الصبح مداد الظلام، تأملها معى جيداً إنها التواضع وفى التواضع ما فيه من حميد السجايا وكريم الشمائل « من تواضع لله رفعه ومن تكبر وضعه الله ».

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر
على صفحات الماء وهو رفيع
ولا تك كالدخان يعلو بنفسه
إلى طبقات الجو وهو وضيع

إن الكبر وهو غمط الناس وبطر الحق رذيلة من أسوأ ما يتصف به المرء ومن ثم كان الوعيد عليه شديدا .

قال صلى الله عليه وسلم « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر » .

قال رجل يا رسول الله : الرجل منا يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة قال صلى الله عليه وسلم «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر غمط الناس وبطر الحق » . ولابد لنا من كلمة نعقب بها على هذا الحديث فى قوله صلى الله عليه وسلم إن الله جميل يحب الجمال فقد فهم البعض من هذه الفقرة فهماً أقل ما يوصف أنه غير مستقيم فإن الجمال الذى يحبه الله هو الجمال النظيف من الخلق الجميل والثوب النظيف والكلمة النظيفة إلى غير ذلك من صور الجمال البديع التى أحلها الله أما الجمال المحرم فإنه بعيد كل البعد عن هذا الحديث فما تراه العيون المسمومة جمالا فى نظرة جائعة إلى ما حرم الله فليس هذا بجمال يحبه الله بل يبغضه . (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن) نعم ! وقبل أن يحرم الله النظرة إلى ما محرم الله فقد أباحها فيما أحل الله .

(أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج) .

(والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم) .

إن عظمة الإسلام تتجلى فى أنه دين النظافة فى أسمى معانيها .

إذا كان التواضع فضيلة فإن الكبر رذيلة محطمة للكيان الإنسانى وأول من تحطمه صاحبها :

يا مدعى الكبر إعجاباً بصورته
أنظر خلاك فإن النتن تثريب

لو فكر الناس فيما فى بطونهمو
ما استشعر الكبر شبان ولا شيب

يا ابن التراب ومأكول التراب غدا
أقصر فإنك مأكول ومشروب

(ولم يستطل على خلق) شرط آخر .

والاستطالة على الخلق إيذاؤهم بأى لون من ألوان الأذى بكلمة أو نظرة أو إفساد. قال صلى الله عليه وسلم «لا ضرر ولا ضرار» حتى أن الإسلام يتجاوز كل حد فى النهى عن الأذى ولو بتخطى الرقاب فى صفوف المصلين «فمن تخطى رقاب الناس فقد آذاهم ومن آذاهم فقد آذانى ومن آذانى فقد آذى الله ومن آذى الله يوشك أن يأخذه» .

ابتلى أحد الصالحين بزوجة ناشز فقيل له ما ضر لو طلقتها فقال أخشى أن أطلقها فيبتلى بها غيرى ومعاذ الله أن أكون سبباً فى أذى الناس .

(ولم يبت مصراً على معصيتى) .

ومن القواعد المقررة أنه لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار، الإصرار على الصغيرة يجعلها كبيرة ، والاستغفار من الكبيرة يغفرها بإذن الله ، إن علم الله من العبد صدق النية فى التوبة . ومعنى قوله تعالى فى الحديث القدسى الجليل (ولم يبت مصراً على معصيتى) أى بات على توبة واستغفار بعيداً كل البعد عن الإصرار والاستكبار عن التوبة بل إن رحمة الله تعالى وسعت كل شيء(ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم) .

بل إنه جل شأنه يقول للكرام الكاتبين :

(إذا هم عبدى بفعل سيئة فلا تكتبوها حتى يفعلها فإن فعلها فاكتبوها له سيئة مثلا وإن تركها من أجلى فاكتبوها له حسنة . وإذا هم عبدى بفعل حسنة ولم يفعلها فاكتبوها له حسنة وإن فعلها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف) .

فما أكرم هذا الإله الذى يقول (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله) .

رابع شروط القبول (ويقطع نهاره فى ذكرى) والمراد بالذكر هنا استحضار عظمة الله فى قلب المؤمن وهو بهذا المعنى أعم وأشمل من ذكر اللسان يقول النبى صلى الله عليه وسلم «ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق

وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم قلنا بلى قال ذكر الله » .

وليس الذكر هنا قاصر على ما يجرى على الألسنة إنما الذكر كما قال بعض العلماء على سبعة أنحاء: فذكر العينين البكاء وذكر الأذنين الإصغاء وذكر اللسان الثناء وذكر البدن الوفاء وذكر اليدين العطاء وذكر الروح الخوف والرجاء وذكر القلب التسليم والرجاء .

ولابد أن يكون معلوماً أن الذكر لابد أن يكون مقترنا بالفكر قال تعالى (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار) قال أحد الصالحين لإخوانه ذات يوم « إذا ذكر الصالحون نزلت الرحمة قال أحدهم فكيف إذا ذكر الله تعالى قال إذا ذكر الله نزلت الطمأنينة » .

ثم قال يا هذا أو ما قرأت قوله تعالى (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) .

فاقطع نهارك يا أخا الإسلام واذكر الله فى قلبك قائماً وقاعداً وعلى جنبك . كن ذاكر لله فى بيعك وشرائك وذهابك وإيابك وسلوكك ومعاملتك، فإن من ذكر الله فقد اتقاه ومن اتقاه فقد خافه ومن خاف الله عرفه ومن عرف الله أطاعه ومن أطاعه لا يهم بمعصية. قال تعالى فى الحديث القدسى الجليل (أنا جليس من ذكرنى وحيثما التمسنى عبدى وجدنى) .

وقال جل شأنه فى حديث آخر (أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ عنده ذكرته فى ملأ خير منه ، وإن تقرب إلى شبراً تقربت منه ذراعاً ، وإن تقرب منى ذراعاً تقربت منه باعاً، وإن أتانى يمشى أتيته هرولة .

وخامس الشروط « ورحم المسكين وابن السبيل والأرملة ورحم المصاب » .

إذا سئلت عن الإسلام فقل إنه دين الرحمة فعنوان القرآن بسم الله الرحمن الرحيم،وصفه الله (ورحمتى وسعت كل شىء) ورسالة الرسول صلى الله عليه وسلم (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) .
إنه الدين الذى فتح أبواب الجنة أمام رجل سقى كلباً كان قد اشتد به العطش .

وسألوا رسول الله أئنا لنا فى البهائم لأجراً ؟ قال : « نعم، لكم فى كل ذات كبد رطبة أجر» .

إنه دين جعل المؤمن كالنخلة كلها فائدة فجريدها وخوصها وليفها وثمارها ونواها وجزعها كلها فوائد، لذلك إذا مات العبد المؤمن استراح بالموت، وإذا مات الفاجر استراح منه البلاد والعباد والشجر والدواب .
إنه الدين الذى فتح أبواب النار أمام امرأة حبست هرة لا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت جوعاً فأدخلها الله النار بسبب ذلك .

فتأمل معى يا أخا الإسلام كيف تصعر الجحيم لامرأة حبست هرة وهرة واحدة وهرة لا إنساناً إن أغلى ما فى الحياة بعد الإيمان بالله الحرية ومن ثم فإن الحرية منحة من الله لا منة من مخلوق يقول أمير المؤمنين عمر رضوان الله عليه : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً .

إن الرحمة فى الإسلام لا حدود لها .

يقول صلى الله عليه وسلم : الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء ولذا فإن أفضل الأسماء عند الله عبد الله وعبد الرحمن .

وقد حذر الرسول صلى الله عليه وسلم قوماً لا يرحمون وكأنهم يملكون السموات والأرض ومقاليدهما فقال لهم من لا يرحم لا يرحم وقال لهم لا تنزع الرحمة إلا من شقى .

والله تعالى ينادى فى حديثه القدسى : أنا الله وأنا الرحمن فيا أيها السعداء أحسنوا إلى البائسين والفقراء وامسحوا دموع الأشقياء وارحموا من من فى الأرض يرحمكم من فى السماء .

ما جزاء من توافرت له هذه الشروط الخمسة وهى شروط قبول الصلاة من تواضع وبعد عن الأذى وعدم البيتوتة مصرا على معصية وقطع نهاره فى ذكر الله ورحم خلق الله له عند الله الجزاء الأوفى نوره كنور الشمس مشرق وضاء يتألق جبينه صفاء ووفاء لله (أكلؤه بعزتى)

أرعاه وأحميه وأجعل له الملائكة حفظة يحفظونه من السوء ومصارع السوء يجعل الله له فى كل ظلمة نوراً وفى كل جماقة وجهاً له يرزقه حلماً ومثله فى خلق الله كمثل الفردوس فى أعلى الجنان ومن ذا الذى ينال هذا الشرف الأعلى إنهم المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم على صلواتهم يحافظون أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » .

فهنيئاً لكم يا ورثة الفردوس . أسأل الله أن يجعلنا منكم .

أخلاقيات الزكاة

شرعت الزكاة لأحكام كثيرة منها ما هو نفسى ومنها ما هو خلقى ومنها ما هو اجتماعى مثل الصلاة .

إن الزكاة عطاء وبذل ومواساة ومعاونة والنفس بطبيعتها تهتز للكرم وتفرح بالجود وتجد الراحة والاطمئنان فى مواساة الغير وإدخال السرور عليه .

وهذا هو السبب فى أن بعض الناس يقومون بمساعدة المحتاجين ومعاونة المعوزين دون رغبة فى ثواب أو رهبة من عقاب .

وكما أن المعطى يهتز للجود والندى . فإن الآخذ لا يقل عنه فرحاً واعتباطاً ، سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أفضل الأعمال ؟ . فقال : إدخال السرور على المؤمن .

قيل : وما إدخال السرور على المؤمن ؟

قال : سد جوعته ، وفك كربته ، وقضاء دينه .

والإنسان يحب المال بطبعه . وهذا الحب يدعو صاحبه إلى البخل ، والحرص والجشع والأنانية والأثرة وسائر الرذائل الخلقية .

وهذه الصفات تنزل بالإنسان إلى مستوى الحيوان وإلى هذا المعنى يشير الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول :

(أدوأ الداء البخل) .

ويقول : « شر ما فى المرء شح هالع ، وجبن خالع » ولا يتخلص المرء من هذه الرذائل ، إلا بالتمرين على البذل والدربة على العطاء ، ومن ثم كانت الزكاة ضريبة إجبارية لا يملك المرء أن يتخلص منها .

وإلى هذه المعانى تشير الآية الكريمة .

(خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) .

على أن مغالبة النفس ، والانتصار عليها باخراج المال المحبوب لها — فيه دليل على قوة الإيمان ، وكمال اليقين وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (الصدقة برهان) .

أى دليل على قوة الإيمان والإرادة .

وإذا انتصرت النفس على هواها ومحبوبها ، مرة بعد مرة ، أصبحت مذللة لحكم العقل ، وخاضعة لأوامر الله وبعيدة عن الاندفاع العاطفى .

والفقراء يمثلون أكثرية من أفراد المجتمع . ولابد من رعاية هؤلاء المساكين والعجزة والضعفاء ، والمحافظة على إنسانيتهم وكرامتهم ولاسبيل إلى ذلك إلا باخراج جزء معلوم من أموال الأغنياء حتى يكفى هؤلاء

ليصبحوا أعضاء نافعين ومواطنين صالحين وقد يكون فيهم من هو أوفر ذكاء ، وأقدر على النهوض بالأعمال الجسام إذا وجد ما يقوم بحاجته الضرورية من الطعام والملبس والمأوى .

وفى الحديث : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« إن الله فرض على أغنياء المسلمين فى أموالهم بالقدر الذى يسع فقراءهم ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا أو عروا إلا بما يصنع أغنياؤهم » .

ألا وإن الله يحاسبهم حساباً شديداً ويعذبهم عذاباً أليما .

وإذا لم يجد الفقراء والضعفاء الكفاية مما هو ضرورى وتعرضوا للجوع حملهم ذلك على الإتيان بكل ضرب من ضروب الشر للحصول على الضرورى من القوت ، فإن البطون إذا جاعت دفعت أصحابها إلى الجرائم وارتكاب كل موبقة واعتبرت ذلك عملا مشروعاً .

وبالإضافة إلى ذلك فإن الجماعة التى ينتشر فيها الفقر وينشر أنيابه فيها تشتعل فيها العداوة والبغضاء فيهتز كيان الأمة بما يشيع فيها من تقاطع ، وتتعرض لرواج المذاهب المتطرفة ، ولا سبيل للقضاء على شرور الفقر إلا بإخراج حق الفقراء ونصيبهم الذى فرضه الله وجعله أمانة فى يد الأغنياء ، يقول الله سبحانه :

(وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) .

ثم إن الزكاة تقوى الصلات بين الأغنياء والفقراء وتجعل منهم أسرة واحدة متعاونة على الخير وتنمية المال وتقوية الأواصر .

وهى الضمان الاجتماعى الذى يكفل التوازن بين الطبقات ويضمن اشتراكية سليمة وهى أفضل وسيلة لتوزيع المال فهى فى الوقت الذى لا يضيق بها الغنى ، ترفع مستوى للفقير إلى حد الكفاية وتجنبه شظف العيش وألم الحرمان .

الجانب الخلقى
فى الصيام

يقول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) .

بالتأمل فى هذه الآية تتبين لنا الأخلاق السامية من هذه العبادة .
فالله سبحانه يقول :

إنه فرض الصيام على هذه الأمة كما فرضه على من تقدمها من الأمم ليعد النفوس ويهيئها لكل خير وبر .

وذلك . . . أن الصائم يترك شهواته ، وأحب الأشياء إليه — مع قدرته عليها — امتثالا لأمر الله ومسارعة إلى مرضاته وهذا من شأنه أن يورث خشية الله وينمى ملكة المراقبة ، ويوقظ الضمير .

ثم إن الصيام يقوى الإرادة ويعودها الصبر والاحتمال ، فيستطيع الإنسان مواجهة الحياة ومكافحتها بشجاعة فلا تثنيه صعابها ولا تتغلب عليه أحداثها .

وبقدر ما تقوى الإرادة يضعف سلطان العادة وبذلك تتاح الفرص لهجر الكثير من العادات السيئة : مثل عادة التدخين وتناول المكيفات وغيرها مما يضعف البدن ويمرضه ويذهب بالمال فى غير طائل .

وبإيقاظ الضمير وتقوية الإرادة يعظم الإنسان ويشرف ويصل إلى الذروة من الفوز والنجاح .

والصيام ليس مجرد الإمساك عن المفطرات وإنما هو هجر جميع المعاصى والسيئات فلا يحل للصائم أن يتكلم إلا حسناً ولا يفعل إلا جميلا وإلى ذلك يشير الرسول صلى الله عليه وسلم فى قوله :

(الصيام جنة) أى وقاية من المنكرات والشرور .

وبهذا يكون الصيام درساً عملياً فى أخذ النفس بالفضائل وحملها على الاتصاف بكل ما هو حسن فى جميع الحالات .

وبذلك تزكو وتطهر ويصبح الإنسان مأمول الخير مأمون الشر . فإذا لم يبلغ الصيام بالإنسان هذه الغاية من التهذيب فإن صيامه لا وزن له عند الله وأنه لاحظ له من صيامه إلا الجوع والعطش . . .

يقول الرسول عليه الصلاة والسلام :

« رب صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش » .

ويقول : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » .

والصيام فيه معنى المساواة بين الأغنياء والفقراء فى الحرمان وترك التمتع بالشهوات وهذا من شأنه أن يرفع من نفس الفقير إذ يجد الغنى مثله فى القيام بهذه الفريضة .

كما أنه يفجر ينابيع الرحمة والعطف فى قلوب الأغنياء والفقراء فى الحرمان وترك التمتع بالشهوات وهذا من شأنه أن يرفع من نفس الفقير إذ يجد الغنى مثله فى القيام بهذه الفريضة .

كما أنه يفجر ينابيع الرحمة والعطف فى قلوب الأغنياء ويبعثهم على مواساة الذين ضاقت بهم سبل العيش فتتآلف القلوب وتذهب الأحقاد ويتعاون الفقراء والأغنياء على النهوض بالمجتمع وتوفير الطمأنينة له .

لقد كان يوسف عليه السلام أميناً على خزائن الأرض وكان يكثر من الصيام فسئل عن ذلك فقال : أخاف أن أشبع فأنسى الجائع .

هذه هى آثار الصيام وحكمه فى النفس والخلق والمجتمع وهى آثار بعيدة المدى إذ إنها تعد المهذب والمجتمع الفاضل ، وتصل بالأمة إلى غاياتها من الرفعة والسمو .

الجانب الخلقي

في فريضة الحج

إن شعائر الحج تثير في النفس ذكريات عذاباً إذ إنها ترتبط بالواقع التاريخي لأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام وخاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

والحج يلقي على هذه الذكريات من الظلال والألوان ما يجعلها شاخصة للعيون وماثلة في الأذهان .

إن إبراهيم عليه السلام هو الذي رفع قواعد البيت وإسماعيل وهو أول بيت وضع لعبادة الله في الأرض ومن ثم أمر الحنفاء أن يتوجهوا إليه كلما توجهوا إلى الله في صلاتهم وأن يتلاقوا عنده كل عام يحدوهم الحب في الله والاجتماع عليه ليعلنوا تضامنهم واتفاقهم على إقامة شريعة الله الواحد .

ولا تزال النفس الإنسانية تهفو إلى مصدر إشعاعها الأول وتحن إليه ، وتقيم لذلك المعالم المادية ، وتتخذ منها حافزاً يرقى بحاضرها وينهض بها إلى حياة أهدى وأزكى .

ولقد جاشت نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم وانفعلت بهذه الذكريات فبكى وهو عند الكعبة ، وقال :

(يا عمر : هنا تسكب العبرات) .

والحج نوع من السلوك ولون من ألوان التدريب العملى على مجاهدة النفس من أجل الوصول إلى المثل الأعلى والاندماج فى حياة روحية خالصة تمتلىء فيها القلوب بحب الله ، وتنطلق الحناجر هاتفة بذكره مثنية عليه .

بينما يرتدى المرء ملابس الإحرام وهى ملابس خالية من الزينة ومن كل ما يثير فى النفس دواعى العجب والخيلاء .

يقول الله تعالى : (الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج وما تفعلوا من خير يعلمه الله) .

تشير هذه الآية إلى أن المرء حينما يدخل فى أعمال الحج ، يجب عليه أن يعيش فى جو من العفاف والأدب العالى .

فلا يتدنى إلى رفث ولا يميل إلى فسوق ولا ينطق بكلمة طائشة أو ينظر نظرة فاحشة .

كما تشير أيضاً إلى فعل الخير وهو عمل إيجابى يجمل بكل مؤمن أن يهتم به ويحرص عليه ويمكن تلخيص الحكم الاجتماعية للحج فيما يلى :

١ — إن الحج رحلة سياحية لتجميع أكبر عدد ممكن من أفراد الأمة الإسلامية ليشهدوا المنافع التى تعود عليهم بالخير والبركات سواء أكانت منافع روحية ، أم منافع اقتصادية أم منافع سياسية .

٢ — إن فيه تعارف الشعوب الإسلامية وتوحيد غاياتهم التى توجههم الوجهة التى تأخذ بأيديهم إلى حياة القوة والعزة والعلم والعمل بما يفيده بعضهم من بعض ومن تبادل الآراء المختلفة والثقافات المتنوعة .

٣ — يمكن عقد معاهدات واتفاقات فى موسم الحج ودراسة الوسائل لتيسير التبادل الاقتصادى والثقافى مما تحتاج إليه هذه البلاد .

فلننظر إلى أرض الواسعة ولنستحضر كل المؤتمرات والتجمعات فهل نجد مجتمعاً أطهر وأبر من هذا المجتمع مع هذا العدد الوفير والكثرة الكاثرة ؟ .

وصدق الله العظيم إذ يقول :

(وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم) .

وبعد . .

فقد بسطنا القول فى هـــذا الباب لما له من أهمية كبيرة فإن كثيراً من الناس يؤدى العبادات الإسلامية دون ما نظر إلى ثمراتها وعواقبها يؤديها على أنها واجبات ليس إلا فالصلاة ركعات ذوات ركوع وسجود والزكاة دريهمات تعطى للفقراء والصوم جوع وعطش والحج سياحة وتجارة وقد أهملوا روح هذه العبادات وما تثمره من حسن المعاملات فوقعت الواقعة وجاءت الطامة الكبرى حيث تحولنا إلى غابة يأكل قويها ضعيفها دون ما خوف من الله وهذه عاقبة خطيرة نحذر منها ، تلك العاقبة هى تحول العبادات إلى عادات ومن ثم تفقد العبادات روحها وتصير عقيمة لا تنتج وجافة لا تجود أسأل الله أن يلهم أبناء الأمة رشدهم فيتخلقوا بخلق الإسلام ويضعوا نصب أعينهم الجانب الخلقى فى عبادات الإسلام وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الدعـــوة إلى الله

(ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن) .

(فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر) .

« إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

« إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم » .

إذا سئلت عن أعظم صفة يتصف بها الإسلام فليكن الجواب على الفور إنه دين السماحة والرحمة وتلك أول الصفات التى يجب أن يتحلى بها الدعاة بصفة خاصة ويتحلى بها المسلمون بصفة عامة .

يقول الدكتور أحمد محمد الحوفى فى كتابه « سماحة الإسلام » حفل القرآن الكريم بدعوة المسلمين إلى التسامح فلم يمنع المسلمين من البر بغير المسلمين ما داموا فى سلم مع المسلمين وحسن صلة (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) .

وأمر الإسلام بالرفق فى الدعوة إليه وأمر بمناقشة المخالفين بالحسنى .

قال تعالى : (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن) .

وقال : (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون) .

وبين الله للنبى أنه مكلف أن يبلغ الدعوة ويبشر بالإسلام وليس مكلف أن يحمل الناس عليها بالقوة .

قال تعالى : (فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر) وقال : (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) .

وقال : (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى) .

وقال : (وما أرسلناك عليهم وكيلا) .

وقال تعالى : (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) .

وأمر الله النبى أن يجير المشرك إذا لجأ إليه واحتمى به وهذه سماحة ما بعدها سماحة « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ، ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون » .

وأمر الله المسلمين بأن يفوا بعهودهم لمن عاهدوهم سواء أكانوا من أهل الكتاب أم من المشركين قال تعالى : (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا) .

وقال : (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) .

وقال : (إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين) .

وحض النبي على التسامح وحببه إلى المسلمين بقوله وبفعله قال عليه الصلاة والسلام : (من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة) .

وأمر بألا يجبر أحد النصارى أو اليهود على ترك دينه فقد كتب إلى عامل له فى اليمن (من كان على يهودية أو نصرانية فلا يفتن عنها) .

وأظهر النبي صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه وقواد المسلمين سماحة سمحة فيما عقدوا من صلح مع البلاد التى فتحوها .

ومن شأن المنتصر أن يستبد ويملى شروطه بدافع الغيظ والانتقام والغرور بالقوة ولكن المسلمين كانوا فى معاهداتهم مع المغلوبين كراماً فأقروهم على عقائدهم وشعائرهم الدينية وأوصوا برعايتهم والمحافظة على أموالهم .

فقد عقد النبي صلى الله عليه وسلم معاهدة مع قبيلة تغلب سنة ٩ هـ

وكان الإسلام قد قوى ودانت به العرب — أباح لهم فيها البقاء على نصرانيتهم .

وصالح نصارى نجران ، وتركهم أحراراً فى دينهم .

ووجه عماله إلى اليمن لأخذ الجزية ممن أقام على نصرانيته وكذلك فعل مع النصارى واليهود جميعاً فى بلاد العرب وكان المجوس منبثين فى بقاع شتى من جزيرة العرب منهم مجوس نجران وهجر وعمان والبحرين وهؤلاء جميعاً بقوا على دينهم ودفعوا الجزية .

واقتدى به المسلمون من بعده فقد أوصى أبو بكر أسامة ابن زيد لما وجهه إلى الشام بالوفاء لمن يعاهدهم وبالرحمة فى الحرب وبالمحافظة على أموال الناس وبترك الرهبان أحراراً فى ديارهم وصوامعهم وقال له لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخاً ولا امرأة ولا تعقروا نخلا وتحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بعيراً إلا للأكل وإذا مررتم بقوم فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له .

وفى خلافته عاهد خالد بن الوليد أهل الحيرة على ألا يهدم لهم بيعة ولا كنيسة ولا قصراً يتحصنون فيه وعلى ألا يمنعوا من ضرب نواقيسهم وإخراج الصلبان فى يوم عيدهم على أن لا يعينوا كافرا على مسلم ، ولا يتجسسوا للكفار على المسلمين . ونص فى المعاهدة على أن الجزية يعفى منها الشيخ الذى عجز عن العمل ، أو أصابته عاهة أو كان غنياً فافتقر

وصار أهل دينه يتصدقون عليه وليس ذلك فحسب بل يعال هو وأولاده من بيت مال المسلمين ما أقام بدار الإسلام .

وكان عمر بن الخطاب رفيقاً بأهل الكتاب فقد نصح سعد بن أبى وقاص لما أرسله إلى حرب الفرس بأن يبعد معسكره عن قرى أهل الصلح والذمة وبألا يسمح لأحد من أصحابه بدخولها إلا إذا كان على ثقة من دينه وحسن خلقه وأوصاه ألا يأخذ من أهلها شيئاً لأن لهم حرمة وذمة يجب على المسلمين الوفاء بها ، وحذره من أن تضطره حرب أعدائه إلى ظلم الذين صالحوه .

ويكفينا من هذه الوصية أن عمر يأمر قائده بألا يجعل بلاد الذميين ميداناً لحربه حتى لا يصابوا بشرور الحرب ونحن نرى فى العصر الحاضر أن الدول تتحارب فى غير أوطانها وتنزل أفدح الأضرار بالمسلمين ، ممن لا ناقة لهم فى الحرب ولا جمل .

وأوصى أبا عبيدة بن الجراح بقوله « وامنع المسلمين من ظلمهم والإضرار بهم وأكل أموالهم إلا بحقها ووف لهم بشرطهم الذى شرطت لهم فى جميع ما أعطيتهم » . فحقق أبو عبيدة ما أراد عمر وعاهد أهل الشام معاهدة سمحة .

وقد أعطى عمر أهل إيلياء أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وألا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها وأنهم لا يضطهدون بسبب نصرانيتهم ولا يضار أحد منهم ولا يكرهون على

دينهم ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا أمانهم ومن أقام منهم آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية .

ومن أحب من أهل إيلياء أن يسيروا بأنفسهم وأموالهم إلى الروم ويخلوا بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم .

وكتب لأهل اللد أماناً مثل هذا .

وكتب لأهل بيت المقدس مثله .

وفى عهده عاهد خالد بن الوليد أهل دمشق على الأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم ولا يسكن شىء من دورهم ولا يعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية لهم بذلك عهد الله وذمة رسول الله وذمة الخلفاء والمؤمنين .

وصالح عمرو بن العاص حاكم الاسكندرية على أن يعطيه الجزية وأن يخير الأسرى بين الإسلام والبقاء على دينهم فمن اختار منهم الإسلام فهو من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم ومن اختار دين قومه وضع عليه الجزية ما يوضع على أهل دينه .

ولم ينس عمر واجبه فى رعاية أهل الكتاب فى وصيته لخليفته وهو يجود بروحه لأنه يعلم أنهم بعض شعبه فهو مسئول عنهم .

فقد أوصى خليفته بأن يفى بعدهم وأن يقاتل من ورائهم فلا يجعل ديارهم ميدانا للحرب وألا يكلفهم فوق طاقتهم .

ثم فتح المسلمون بلاداً أخرى وسلكوا مع أهليها مسلك السماحة فقد نص فى الصلح مع أهل أذربيجان على ألا يقتل المسلمون أحداً من أهلها ولا يأسروه ولا يهدموا بيتا من بيوت النار لذلك بقيت بيوت النار قائمة إلى القرن الرابع الهجرى وكانت كثيرة جداً ولقد حرص فقهاء المسلمين على العناية بأهل الذمة وكتبوا فى ذلك كثيراً .

من هذا أن أبا يوسف القاضى كتب إلى الرشيد ينصحه بقوله « وينبغى يا أمير المؤمنين — أيدك الله — أن تتقدم فى الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد صلى الله عليه وسلم والتفقد لهم حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقاتهم ولا يؤخذ شىء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم فلم يكن عجباً أن انبهر بسماحة الإسلام وتسامح المسلمين سكان البلاد المفتوحة وإن انطلقت ألسنتهم بالثناء على المسلمين لأنهم رأوا من المسلمين سموا فى الأخلاق ونبلا فى المعاملة وسماحة لم يعهدوها من قبل حينما كان يحكمهم الفرس أو الروم .

ولم يكن عجباً أن وجد المسلمون من هؤلاء السكان عوناً فى فتوحهم الظافرة .

وقد أراد الفقهاء فيما بعد أن يضعوا دستوراً للعهود التى يعقدها الحكام

المسلمون مع أهل الذمة لا يتعداه المتعاهدون وسنكتفى بمثال نتبين منه إلى أى مدى تسامح المشرعون من أئمة المسلمين مع الذميين .

جاء فى العهد الذى وضعه الإمام الشافعى .

« . . . لك ولهم على وعلى جميع المسلمين الأمان ما استقمت واستقاموا بجميع ما أخذنا عليكم . وذلك أن يجرى عليكم حكم الإسلام ولا حكم خلافه بحال يلزمكم ولا يكون لكم أن تمتنعوا منه فى شيء رأيناه نلزمكم به . وعلى أن أحداً منكم أن ذكر محمداً صلى الله عليه وسلم أو كتاب الله عز وجل أو دينه بما لا ينبغى أن يذكره به ، فقد برئت منه ذمة أمير المؤمنين وذمة جميع المسلمين ونقض ما أعطى عليه الأمان وحل لأمير المؤمنين ماله ودمه كما تحل أموال أهل الحرب ودماؤهم .

وعلى أن أحداً من رجالكم إن أصاب مسلمة بزنا أو قطع الطريق على مسلم أو فتن مسلماً عن دينه أو أعان المحاربين على المسلمين بقتال أو بدلالة على عورة المسلمين وإيواء لعيونهم فقد نقض عهده وأحل دمه وماله وإن نال مسلماً بما دون هذا فى ماله أو عرضه أو نال به من مسلم فنعه من كافر له عهد أو أمان لزمه فيه الحكم .

وعلى أن تتبع أفعالكم فى كل ما جرى بينكم وبين المسلم فما كان لا يحل لمسلم مما لكم فعله رددناه وعاقبناكم عليه وذلك أن تبيعوا مسلماً بيعاً حراماً عندكم من خمر أو خنزير أو دم ميتة أو غيره ونبطل البيع بينكم فيه ونأخذ ثمنه منكم إن أعطاكموه ولا نرده عليكم إن كان قائماً

ونهريقه إن كان خمراً أو دماً أو نحرقه إن كان ميتة وإن استهلكه لم نجعل عليه فيه شيئاً ونعاقبكم عليه .

وعلى ألا تسقوه أو تطعموه محرماً أو تزوجوه بشهود منكم أو بنكاح فاسد عندنا .

وما بايعتم به كافراً منكم أو غيركم لم نتبعكم فيه ولم نسألكم عنه ما تراضيتم به . وإذا أراد البائع منكم أو المبتاع نقض البيع وأتانا طالباً له فإن كان منتقضاً عندنا نقضناه وإن كان جائزاً أجزناه إلا أنه إذا قبض البيع لم يرده لأنه بيع بين المشركين .

ومن جاءنا منكم أو من غيركم من أهل الكفر ليتحاكم أجريناكم على حكم الإسلام ومن لم يأتنا لم نعرض لكم فيما بينكم وبينه .

وإذا قتلتم مسلماً أو معاهداً منكم أو من غيركم خطأ فالدية على عاتقكم كما تكون على عواتق المسلمين وإن قتل منكم رجل رجلا بلا قرابة فالدية عليه فى ماله وإذا قتله عمداً فعليه القصاص إلا أن تشاء ورثته ديته فيأخذونها .

ومن سرق منكم فرفعه المسروق إلى الحاكم قطعه إذا سرق ما يجب فيه القطع وغرم .

ومن قذف وكان للمقذوف حد حد له . وإن لم يكن له حد عزر حتى تكون أحكام الإسلام جارية عليكم بهذه المعانى فيما سمينا وما لم نسم .

وأن تؤدى كل يافع من أحرار رجالكم غير مغلوب على عقله جزية رأسه ديناراً فى رأس كل سنة ولا يكون له أن يغيب عن بلده حتى يؤديه أو يقيم به من يؤديه عنه .

ولا جزية على أبنائكم الصغار ولا على صبى غير بالغ ولا على مغلوب على عقله ولا مملوك ولا شىء فى أموالكم سوى جزيتكم ما أقمتم فى بلادكم واختلفتم ببلاد المسلمين غير تجار .

وإن اختلفتم بتجارة على أن تؤدوا من جميع تجارتكم العشر إلى المسلمين — فلكم دخول جميع بلاد المسلمين إلا مكة والمقام بجميع بلاد المسلمين كما شئتم إلا الحجاز فليس لكم المقام ببلد منها إلا ثلاث ليال حتى تظعنوا منه .

ولكم أن نمنعكم — وما يحل ملكه عندنا لكم ممن أرادكم من مسلم أو غيره بظلم مما نمنع به أنفسنا وأموالنا ونحل لكم فيه على ما جرى حكمنا عليه بما نحكم به فى أموالنا .

وعليكم الوفاء بجميع ما أخذناه عليكم وألا تغشوا مسلماً ولا تظاهروا عدوهم عليهم بقول ولا فعل .

ولكم عهد الله وميثاقه وذمة فلان أمير المؤمنين وذمة المسلمين بالوفاء لكم فإن غيرتم أو بدلتم فذمة الله ثم ذمة فلان أمير المؤمنين والمسلمين بريئة منكم .

ومن غاب عن كتابنا ممن أعطيناه ما فيه فرضيه إذا بلغه فهذه الشروط لازمة له ولنا ومن لم يرض نبذنا إليه .

وقد قام هذا العهد على عدة أسس :

١ — المسلمون مقيدون فى صلتهم بالذميين بأحكام الإسلام فلا مجال للهوى والاعتساف .

٢ — تبرأ ذمة المسلمين من عهدهم للذميين إن خان الذميون عهدهم ولهذه الخيانة مظاهر شتى منها أن يتهجم الذميون على القرآن الكريم والنبي صلى الله عليه وسلم أو الدين الإسلامى ومنها يعتدى الذميون على أعراض المسلمات أو يقطعوا الطريق أو يردوا مسلماً عن دينه أو يساعدوا أعداء المسلمين المحاربين لهم بالمال أو بالتجسس أو بالإيواء وهم فى هذه الأحوال أهل غدر وخيانة .

٣ — حينما يتعامل الذمى مع مسلم ، فعلى الذمى ألا يجرئه على مخالفة دينه بأن يتغفله أو يستهين بالإسلام .

٤ — أهل الذمة يعاقبون على القتل كما يعاقب المسلمون فإذا قتلوا مسلماً أو ذمياً خطأً فالدية عليهم كما تكون على المسلمين إذا قتلوا والقصاص جزاء للقتل العمد ويعاقبون على السرقة بقطع اليد كما يعاقب المسلمون ويحدون على القذف أو يعزرون كما يحد المسلمون أو يعزرون .

٥ — وعلى الذميين أداء جزية الرءوس .

٦ ـ والدولة الإسلامية مكلفة أن تحمى الذميين وأموالهم من عدوان المسلمين وغيرهم ومكلفة أن تدرأ عنهم الظلم الذى تدرؤه عن المسلمين لأنهم بعض الرعية .

٧ ـ والذميون مكلفون أن يفوا بالعهد الذى عقدوه فإن نقضوه برئت ذمة المسلمين من عهدهم .

وهذه أسس عادلة سمحة تكفل للذميين أن يعيشوا أحرار العقيدة والنفس فى بلاد المسلمين وأن يطمئنوا على أرواحهم وأموالهم بل أنها تكفل للذميين والمسلمين أن يعيشوا فى الوطن الواحد أخوة متعاونين متحابين .

وقد قام الإسلام على التسامح قولا وعملا وإليك أيها القارىء الكريم صور من تسامحه العملى .

اشترطت قريش على النبى صلى الله عليه وسلم فى صلح الحديبية شروطاً قاسية منها أن من جاء من محمد صلى الله عليه وسلم إلى قريش لا ترده إلى محمد ومن جاء إلى محمد بغير إذن وليه رده محمد صلى الله عليه وسلم .

وقبل النبى صلى الله عليه وسلم شرطهم الجائر لحكمة رآها وتبرم بعض الصحابة بالشروط وما كادوا ينتهون من توقيع المعاهدة حتى جاء أول امتحان للوفاء إذ وصل مسلم من مكة اسمه أبو جندل بن سهيل يرسف فى الحديد فاراً من أذى قومه وألح على الرسول فى أن يضمه إليه لكن الرسول سلمه لقريش وفاء بعهده فقال أبو جندل إنهم سيعذبوننى

فقال له عليه الصلاة والسلام اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله وإنا لا نغدر بهم » .

ثم وفد على النبي بالمدينة أبو بصير عتبة بن أسيد فرده وقال له مثل ما قال لأبي جندل .

وإن سماحة الرسول وسماحة الإسلام تتجلى حتى فى الموقف المهتاج الذى تطمئن فيه النفوس إلى الانتقام فقد كانت الأمم تعامل أسراها معاملة العدو البغيض فتقتلهم أو تبيعهم أو تسترقهم وتسخرهم فى أشق الأعمال .

أما الرسول فقد عامل أسرى بدر معاملة حسنة ، وذلك بأنه وزع الأسرى السبعين على أصحابه ، وأمرهم أن يحسنوا إليهم فكانوا يفضلونهم على أنفسهم فى طعامهم ثم استشار أصحابه فى شئونهم فأشير عليه بقتلهم وأشير عليه بفدائهم فوافق على الفداء وجعل فداء الذين يكتبون أن يعلم كل منهم عشرة من صبيان المدينة الكتابة وأشير عليه أن يمثل بسهيل ابن عمرو أحد المحرضين على محاربة المسلمين بأن ينزع ثنياته السفليين فلا يستطيع الخطابة فرفض النبي وقال : « لا أمثل به فيمثل الله بي ولو كنت نبياً » وكذلك أطلق أسرى بني المصطلق ولما فتح مكة قال لقريش « ما تظنون أنى فاعل بكم قالوا « خيراً أخ كريم وابن أخ كريم » ، قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لى ولكم » .

ومنع المسلمين فى غزوة خيبر بلد اليهود الذين نكثوا عهودهم مع

المسلمين وحرضوا العرب على غزوهم وانضموا إليهم من أن يدخلوا بيتاً من بيوت اليهود إلا بإذنه ومن أن يضربوا نساء اليهود أو يعتدوا على ثمراتهم .

وكان عليه الصلاة والسلام يحضر ولائم أهل الكتاب ويغشى مجالسهم ويواسيهم فى مصائبهم ويعاملهم بكل أنواع المعاملات التى يتبادلها المجتمعون فى جماعة يحكمها قانون واحد وتشغل مكاناً مشتركاً فقد كان يقترض منهم نقوداً ويرهنهم متاعاً ولم يكن ذلك عجزاً من أصحابه عن إقراضه فإن بعضهم كان ثرياً وكلهم يتلهف على أن يقرض رسول الله صلى الله عليه وسلم بل كان يفعل ذلك تعليماً للأمة وتثبيتا عملياً للذى يدعو إليه من سلام ووئام وتدليلا على أن الإسلام لا يقطع علاقات المسلمين مع مواطنيه من غير دينهم .

كان عمر بن الخطاب بالشام وقد حانت الصلاة وهو فى كنيسة القيامة فطلب البطريك من عمر أن يصلى بها وهم أن يفعل ثم اعتذر بأنه يخشى أن يصلى بالكنيسة فيدعى المسلمون فيما بعد أنها مسجد لهم فيأخذوها من النصارى فكتب للمسلمين كتاباً يوصيهم فيه بألا يصلوا على الدرجة التى صلى عليها إلا واحداً واحداً غير مؤذنين للصلاة وغير مجتمعين .

إن هذه ليست سماحة فحسب إنما هى سماحة مضاعفة تتخطى الحاضر إلى المستقبل سماحة مضاعفة تنبع من نفس طاهرة وتعتمد على بصيرة نفاذة بعيدة المرمى . سماحة مضاعفة لأن صاحبها لا يعتمد على سماحته

وحده ولا على تحلله من التبعة وحده إنما يريد ممن يجيئون بعده طال الزمن أو قصر أن يكونوا سمحاء مثله ويريد أن يتحلل من تبعة يومه وغده وإن لم يكن له فى المخالفة ضلع .

وبينما هو يسير بالشام لقيه قوم من نصارى أذرعات يلعبون بالسيوف والريحان أمامه كما تعودوا أن يفعلوا فى الاحتفال بالعظماء فقال « ردوهم وامنعوهم » لأنه كان يكره الأبهة ومظاهر الملك فقال أبو عبيدة بن الجراح يا أمير المؤمنين هذه عاداتهم وإنك إن تمنعهم يروا أن فى نفسك نقضاً لعهدهم . فقال عمر دعوهم عمر وآل عمر فى طاعة أبى عبيدة .

أعرفت لماذا استجاب عمر لرأى أبى عبيدة ؟ لقد خشى أن يظنوا أنه مبغض لهم عازم على نقض عهده معهم وبحسبه من السماحة أن احتمال هذا الظن وحده جعله يغير من عادته ، فرضى أن يلعبوا أمامه بالسيوف والريحان .

واشتهر عنه أنه كان ينصف من يشكو إليه من النصارى واليهود فقد علم أن الوليد بن عقبة واليه على بنى تغلب النصارى قد توعدهم فخشى أن يوقع بهم شراً فعزله وولى غيره .

ومر برجل يسأل على الأبواب وكان الرجل شيخاً ضريراً فقال له عمر :

من أى أهل الكتاب أنت ؟ فقال : يهودى . قال عمر مما الذى ألجأك

إلى ما أرى ؟ قال : الجزية والحاجة والسن . فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله وأعطاه مما وجده ثم أرسل إلى خازن بيت المال وقال له : انظر هذا وضرباءه فوالله ما أنصفناه إن أكلناه فى شبيبته ثم نخذله عند الهرم . ووضع عنه الجزية .

وأمر أن يعطى من الصدقات قوم من النصارى مصابون بالجذام وأن يرتب لهم القوت .

وكذلك كان ابنه عبد الله حدث مجاهد قال : كنت عند عبد الله ابن عمر وغلام له يسلخ شاة ، فقال يا غلام : إذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودى . وقال ذلك مراراً ، فقال له : كم تقول هذا . فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يزل يوصينا بالجار حتى خشينا أنه سيورثه .

فعبد الله بن عمر يريد من غلامه أن يعطى جاره اليهودى أول الناس جميعاً ، رعاية لحق الجوار ، بصرف النظر عن دينه .

وكان عثمان بن عفان يعطف على شاعر نصرانى هو أبو زبيد .

فإذا ما سايرنا الفتوح الإسلامية بعد ذلك وجدنا الشعوب المختلفة ترحب بالمسلمين الفاتحين وتنضم إليهم أحياناً لتنجو من عسف الفرس والروم ، وتستظل بوارف من العدل والسماحة والحرية .

ولقد تحقق لهذه الشعوب ما أملته وسرعان ما دان أكثرها بالإسلام عن رغبة واختيار وسرعان ما صارت البلاد المفتوحة مؤملا للاسلام ، وأهلها دعاته وحملة لوائه .

فقد كتب المسيحيون فى الشام إلى أبى عبيدة وهو معسكر فى فحل يقولون : يا معشر المسلمين أنتم أحب إلينا من الروم ، وإن كانوا على ديننا أنتم أوفى لنا وأرأف بنا وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا .

وغلق سكان حمص أبواب مدينتهم حتى لا يدخلها جيش هرقل وأعلموا المسلمين أن ولايتهم وعهدهم أحب إليهم من ظلم الرومان وتعسفهم .

وكانت فى الشمال قبائل عربية دانت بالمسيحية زمناً طويلا فلما بدأ الإسلام يصطرع مع الروم سارع بعضها إلى اعتناقه والانضمام إلى المسلمين ، مثل بنى غسان .

وكذلك صنعت بعض القبائل العربية التى كانت موالية للفرس فقد وفد على قائد المسلمين بعد موقعة القادسية سنة ١٤ هـ كثير من العرب المسيحيين المقيمين على ضفاف الفرات وأسلموا كما أسلم إخوان لهم من قبل .

وفى موقعة الجسر سنة ١٣ هـ كاد المسلمون ينهزمون هزيمة ساحقة وهم محصورون بين الفرات والجيش الفارسى وإذا بزعيم مسيحى من قبيلة طيىء ينضم إلى المثنى القائد المسلم ويساعده فى النجاة والارتداد المنظم .

ثم لما استرد المسلمون قواهم وهجموا تدفقت عليهم من كل فج

جموع من العرب منها قبيلة بنى النمر النصرانية التى كانت تقيم داخل النفوذ البيزنطى وهكذا تتكرر الأمثال .

وكذلك رحب القبط بالفتح الإسلامى ولقوا من عمرو أعظم التسامح لأنه أنقذهم من الاضطهاد الدينى ومن عسف الروم وتنكيلهم بمخالفيهم فى المذاهب فقد قست فى التنكيل بهم قسوة لم ينسها أعقابهم حتى اليوم إذ كان بعضهم يعذب ثم يلقى بهم فى اليم وقتل منهم نحو مائتى ألف فى مدينة الاسكندرية بأمر من الامبراطور جستنيان .

ويذكر التاريخ أن اضطهاد جستنيان وخلفائه لقبط مصر حمل كثيراً منهم على الالتجاء إلى الصحراء للاحتماء بها كما تبع كثير منهم بطريقهم إلى المنفى فرارا من التنكيل واضطر عدد كبير إلى إخفاء عقيدتهم الحقيقية .

فليس عجيباً أن يرحبوا بعمرو بن العاص وليس عجيباً أن يحقق لهم الحرية الدينية التى كانوا يبتغونها . نعم إن عمراً كفل للقبط حريتهم الدينية ، ولم يحدث فى عهده ولا من بعده أن ضغط على أحدهم ليرتد عن دينه بل إن بعضهم أسلم قبل أن يتم الفتح .

وما زال التاريخ يقص علينا أن عمراً كتب بيده عهداً لهم — بعد استيلائه على حصن بابليون — بحماية كنيستهم ولعن أى مسلم يخرجهم منها وكتب أماناً للبطريك بنيامين ورده إلى كرسيه بعد أن تغيب عنه ثلاثة عشر عاماً وأمر باستقباله بالحفاوة عندما سار إلى الاسكندرية ولما لقى عمراً بها خطب أمامه وشكره واقترح عليه عدة أمور تحفظ الكنيسة

فتقبلها عمرو وخوله السلطة الكاملة على القبط وعلى شئون الكنيسة . ولم يفرق المسلمون بين الملكانية واليعاقبة بل سووا بينهم وأظلوهم بعدلهم .

ولما فتح المسلمون بلاد الفرس لم يلقوا من الشعب مقاومة عنيفة لأن حكامه كانوا قد استبدوا به وأعنتوه ولأنهم كانوا يناصرون ديانة زرادشت التي صارت الدين الرسمي للدولة ، وقد كانت من قبل بغيضة إلى الأهلين ومنذ صارت الزرادشتية دين الدولة علا مكان كهنتها واستغلوا نفوذهم في اضطهاد الفرق الدينية الأخرى وكانت كثيرة .

وعلى أن المسيحيين واليهود والصابئة وغيرهم لم يسلموا من هذا ثم أن الشعب كان ينوء بالضرائب الباهظة والنظام الطبقي الجائر والحكم الفردي الفاسد لهذا لم يكد يتم للمسلمين النصر حتى تنفس الفرس الصعداء ورحبوا بهم حباً في الخلاص من ظلم الحكام ، ورغبة في إعفائهم من الخدمة العسكرية وأملا في تمتعهم بالحرية الدينية ولم يخب أمل الفرس في عدالة المسلمين وسماحتهم لأنهم عاملوا بالتسامح من بقي من الفرس على دينه وكفلوا لهم حريته في عبادتهم ومعابدهم .

يدل على ذلك أن أحد قواد الخليفة المعتصم (٢١٨ — ٢٢٧ هـ — ٨٣٣ — ٨٤٢ م) أمر بجلد إمام ومؤذن لأنهما اشتركا في هدم معبد من معابد المجوس لتستخدم أحجاره في بناء مسجد مكانه .

ويدل على ذلك أيضاً أن معابد النار في القرن العاشر الميلادي بعد الفتح

بثلاثة قرون — كانت تملأ العراق وفارس وكرمان وسجستان وخراسان وأذربيجان حتى أنه لم تخل مدينة من مدن فارس من معبد أو معابد لعبادة النار .

ولا شك أن بقاء معابد النار بهذه الكثرة بعد الفتح الإسلامى دليل على أن المسلمين لم يجبروا أحداً على دينهم ودليل على أن الذين أسلموا من الفرس إنما أسلموا عن رغبة صادقة وحرية فى الاختيار بعد أن وازنوا بين دينهم القديم وبين الإسلام .

ثم فتح المسلمون أسبانيا فأنجدوا سكانها من العسف والمذلة لأن القوط كانوا هم حكامها وسادتها إذ أنهم لما دخلوها فاتحين طردوا منها الوندال والروم ، واستقلوا بها منذ سنة ٤٨٤ م وبقيت فى قبضتهم أكثر من مائتى عام .

وكان حكمهم فاسداً بغيضاً إلى الشعب لأنهم — على الرغم من تنصرهم — ترفعوا عن السكان الأصليين وعاشوا وحدهم فى أبراج من العاج فكانوا هم الطبقة العليا واستأثروا بالضياع الواسعة وحرموا المصاهرة إلى الأهلين . أما الشعب فكان طائفتين : الطائفة الأولى هم أرقاء المزارع والعبيد وكان هؤلاء ملكاً لسادتهم لا يحميهم قانون ولا عرف من التعذيب أو القتل .

وكان أرقاء الأرض ملزمين بالإقامة فيها وزرعها فإذا انتقلت من

مالك إلى مالك انتقلت إليه ملكية أرقائها ، ولم يكن من حقهم أن يتزوجوا إلا برضا السادة .

أما الطائفة الثانية فهى الطبقة المتوسطة وقوامها الأحرار من سكان المدن وقد لاقى هؤلاء من التضييق والإرهاق مثل ما لاقى العبيد لأن أثقال الضرائب التى كان يتطلبها السادة للانفاق على شهواتهم وترفعهم كانت على عواتقهم .

ثم أن رجال الدين خيبوا الآمال المعلقة على عاتقهم فى نصرة الضعفاء ، لأنهم استغلوا تنصر القوط وانضمامهم إلى الكنيسة ، واستبدوا بشئون الحكم وبشئون الدين ، وتنافسوا فى إحراز الثروات ، وامتلاك الضياع الواسعة ، وأعفوها من الضرائب ، كما أعفى الأشراف ضياعهم ولم يكونوا أرحم بأرقاء أرضهم من السادة الأشراف .

وحينما أحسوا بقوتهم هيمنوا على سياسة الدولة ، وعلا نفوذهم على نفوذ الأشراف ، ثم دفعهم التعصب إلى اضطهاد اليهود ، وإجبارهم على التنصر وخيرهم الملوك بين إثنين : أن يتنصروا ، أو ينفقوا وتصادر أملاكهم ، فاضطر كثير منهم إلى التنصر رياء لا عقيدة .

وقد ظهر أثر هذا الرياء فى تآمرهم مع يهود بلاد العرب ، وعزمهم على الثورة قبل الفتح الإسلامى بسبع عشرة سنة ، فلما عرفت الدولة مؤامرتهم سنة ٦٩٤ م سلبتهم أملاكهم ،وضمتها إلى الملك ، وقضت بأن يمتلكهم ويهبهم عبيداً لمن يشاء ، وأن يربى أبناءهم على النصرانية ،

وألا تتزوج يهودية إلا بنصرانى ، لهذا رحب اليهود وسكان البلاد بالعرب الفاتحين ، لأنهم سيخلصونهم مما حل بهم من مظالم لا تطاق .

ولم يكن اختلاف الدين مانعاً للذميين من أن يوظفوا فى الدولة .

فقد اصطنع عمر بن الخطاب بعض أسارى قيسارية كتاباً له ، ووظفهم فى الدولة . وإذا كان قد رفض أن يوظف مسيحياً من أهل الحيرة ، فإن ذلك لم يكن لاختلاف الدين ، وإنما كان لأنه لم يطمئن إليه ، كما اطمأن إلى غيره ، ولا تثريب عليه فى هذا الرفض ، فقد كان يرفض تولية المسلم إذا توجس منه ظلماً للناس أو خيانة للمال .

ثم اتخذ أبو موسى الأشعرى كاتباً نصرانياً .

ثم توسع معاوية فى إلحاق النصارى بخدمته ، وحاكاه آخرون من البيت الأموى ، فكان لمعاوية طبيب نصرانى هو ابن آثال ، وقد كافأه معاوية بوضع الخراج عنه وولاه خراج حمص .

وطالما شغل المسيحيون مناصب عالية فى بلاط الخليفة ، مثل الأخطل شاعر البلاط ، ومثل يوحنا الدمشقى مستشار عبد الملك بن مروان .

ثم اختار عبد الملك عالماً مسيحياً من مدينة الرها يدعى أثناس مؤدباً لأخيه عبد العزيز ، ولما عين عبد العزيز والياً على مصر رافقه أستاذه ، وجمع من مصر ثروة عظيمة جداً .

وقد ظل كتاب الدواوين حتى زمن عبد الملك بن مروان من غير المسلمين ، فكان كاتب الخراج فى الشام سورياً ، وفى إيران فارسياً

وفى مصر قبطياً ، وقلما خلا ديوان من دواوين الدولة فى مصر من النصارى. ونجد نصرانياً والياً على سجن بالقرب من الكوفة سنة ٣٦ هـ ، حينما كان الوليد بن عقبة عاملا عليها .

ثم استمر هذا التسامح يتماشى مع العصور ، فإن جورجيس بن جبريل رئيس أطباء جند يسابور عالج الخليفة المنصور ، وعرض عليه الخليفة أن يسلم ، فرد عليه بقوله : أنا على دين آبائى أموت ، حيث يكون آبائى أحب أن أكون أمامى الجنة وأمامى جهنم . فلم ينكر المنصور عليه ، ولم يبعده عن مكانه .

وكان فى خدمة الخليفة المعتصم (٢١٨ – ٢٢٧ هـ ، ٨٣٣ – ٨٤٢ م) أخوان مسيحيان بلغا منزلة سامية عنده ، أحدهما يسمى سلمويه والآخر يدعى إبراهيم ، وكان سلمويه يشغل منصباً قريب الشبه من منصب الوزير فى العصر الحديث ، وكانت الوثائق الملكية لا تنفذ إلا بعد توقيعه عليها . أما إبراهيم فكان حافظاً لخاتم الخليفة وأميناً على خزانة بيوت الأموال فى البلاد ، على حين أنه كان من المنتظر أن يوكل الأشراف على هذه الأموال إلى رجل من المسلمين . وقد بلغ من ميل الخليفة الشديد إلى إبراهيم ، أنه عاده فى مرضه الأخير ، وغمره الحزن عند وفاته ، وأنه أمر فى يوم تشييع جنازته بإحضار جثمانه إلى القصر ، حيث أقيمت له الطقوس الدينية فى خشوع مهيب .

وقد ذكر السير توماس أرنولد أسماء بعض الوزراء والولاة المسيحيين

فى الدويلات الإسلامية وأسماء الأطباء المسيحيين المقربين إلى الخلفاء ، ثم قال : إن المسيحيين أحرزوا ثروات ضخمة ، وتمتعوا بنجاح عظيم فى عصور الإسلام الأولى ، بفضل ما كفل الإسلام لهم من حرية العقيدة والملك ، حتى لقد كان منهم أصحاب نفوذ عظيم فى قصور الخلفاء .

لكن بعض الموظفين من أهل الكتاب استغلوا تقريب الخلفاء لهم ، واستغلوا وظائفهم استغلالا أحنق عليهم بعض المسلمين . فلم يكن اختلاف الدين هو الباعث على الحنق ، لأن هذا الاستغلال لو كان من مسلم لأحنق المسلمين .

وحسبنا شهادة الكونت هنرى دى كاسترى فى قوله : كان بغض المسلمين لهؤلاء نتيجة فى الغالب لجورهم فى الأحكام لا لمخالفتهم فى الدين .

ولم يكن اختلاف الدين حائلا بين العلماء والمتعلمين ، فإن كثيراً من أهل الكتاب درسوا على علماء من المسلمين ، منهم حنين بن إسحاق درس على الخليل بن أحمد وعلى سيبويه ويحيى بن عدى بن حميد العالم المنطقى تتلمذ على الفارابى . وثابت بن قرة درس على محمد بن موسى وابن جزلة تلقى على على بن الوليد العالم المعتزلى ، ثم أسلم فيما بعد .

وطالما درس المسلمون على المسيحيين واليهود ، فى غير تحرج ولا استعلاء ، وتاريخ المسلمين حافل بتلقيهم عن مخالفيهم فى الدين ، وانتفاعهم بتجاربهم وعلومهم ومؤلفاتهم . فقد اشتهر عن الأمير خالد بن يزيد

(المتوفى سنة ٨٥ هـ) . أنه كان مشتغلا بالكيمياء بإرشاد راهب مسيحى ، وأنه أمر بترجمة كتب فى الكيمياء من اليونانية إلى العربية . وبنقل كتب فى الطب والنجوم .

وفى عهد عمر بن عبد العزيز نقل كتاب أهرون فى الطب .

ثم عظم النقل فى العصر العباسى الأول ، وفى كتاب طبقات الأطباء والفهرست وغيرهما أسماء مئات من النقلة مثل حنين بن إسحاق وابنه إسحاق ومتى بن يونس ويحيى بن عدى وإسحاق بن زرعة .

نعم كان بعض المسلمين فى الشام يتخرجون على المسيحيين .

وكانت البصرة والكوفة ملتقى العرب والفرس والمسيحيين والمسلمين واليهود والمجوس وكان المسلمون لا يأنفون من أن يأخذوا العلم من هؤلاء .

كذلك نقل المسلمون عن الهنود كثيراً من حكم الهنود فى عهد المنصور والرشيد ونقلوا الرياضيات الهندية والتنجيم وعرفوا كتاب السند هند لبرهموكيت إذ ترجمه إلى اللغة العربية الفزارى بمعاونة علماء من الهنود فى عصر المنصور قبل أن يعرف كتاب المجسطى لبطليموس .

وترجم يعقوب الرهاوى كتب اليونان فى الإلهيات والفلسفة وهو الذى أفتى بأنه يجوز للقسس المسيحيين أن يقوموا بتعليم أبناء المسلمين عندما سئل عن ذلك .

وقد اشتغل السريان بالترجمة من اليونانية ومن السريانية إلى العربية .

لهذا أشاد المنصفون بهذه السماحة .

قال المستر درابر المؤرخ الأمريكى : كانت إدارة المدارس تفضل سماحة الخلفاء ونبلهم موكولة إلى النساطرة تارة وإلى اليهود تارة أخرى ولم يكن المسلمون ينظرون إلى البلد الذى عاش فيه العالم ولا إلى الدين الذى يعتنقه بل ينظرون إلى مكانته من العلم والمعرفة .

لم يفرق الإسلام بين المسلم والذمى فى المعاملات العامة لأن الجميع سواسية أمام القانون لا تفضيل ولا محاباه حتى وإن كان أحد الخصمين مسلماً رفيع المكانة والآخر يهودياً أو مسيحياً .

فقد شكا يهودى على بن أبى طالب للخليفة عمر فقال عمر لعلى قم يا أبا الحسن فاجلس بجوار خصمك ففعل على وعلى وجهه علامة التأثر فلما فصل عمر فى القضية قال لعلى أكرهت يا على أن تساوى خصمك ؟ قال : لا لكنى تألمت لأنك ناديتنى بكنيتى فلم تسو بيننا — ومعلوم أن الكنية للتعظيم — فخشيت أن يظن اليهود أن العدل ضاع بين المسلمين .

وتنازع الأمير العباسى إبراهيم بن المهدى هو وبختيشوع الطبيب بين يدى القاضى أحمد بن أبى داؤد فزرى إبراهيم على بختيشوع وأغلظ له فاحفظ ذلك القاضى فقال يا إبراهيم إذا نازعت أحداً فى مجلس الحكم فلا ترفع عليه صوتك ولا تشر إليه بيدك وليكن قصدك أمماً وطريقك نهجاً وريحك ساكنة وكلامك معتدلا ووف مجالس الحكومة حقها من التوقير والتعظيم .

فقال الأمير إبراهيم : أمرت بسداد وحضيضت على رشاد ولست بعائد إلى ما يثلم مروءتى عندك ويخرجنى من مقدار الواجب إلى الاعتذار... وقد وهبت حقى من هذا العقار لبختيشوع فليت ذلك يمحو ذلتى ولم يتلف مال أفاد موعظة .

وهذه طائفة من الأحكام يتساوى فيها المسلم والذمى .

هما سواء فى القصاص فالنفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن وهما سواء فى الديات والضمان والتعازير يجرى على الذمى ما يجرى على المسلم .

وفى الأحوال الشخصية أبيح للذمى كل زواج يقره دينه وإن خالف الدين الإسلامى وأبيح له كل طلاق وإن لم يتفق مع الإسلام .

وليس للاسلام أن يتعرض للذميين فى شىء من هذا إلا إذا احتكموا إليه .

وسوى الإسلام فى الحرمان من الميراث بين الذمى والمسلم فلا يرث المسلم قريبه الذمى ولا يرث الذمى قريبه المسلم ولا يرث الزوج المسلم زوجته الكتابية وكذلك لا ترثه .

أباح الإسلام للمسلمين أن يأكلوا من طعام أهل الكتاب وذبائحهم بشرط أن يكون المذبوح مما يحل للمسلمين أكله قال تعالى : « وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم » وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون يأكلون من طعام أهل الكتاب .

أحل الإسلام للمسلم أن يتزوج نصرانية أو يهودية وتبقى على دينها ولها على زوجها من الحقوق مثل ما للمسلمة قال تعالى (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) أما زواج المسلم بمشركة فهو باطل لأن الصلة القلبية لا تتحقق بين زوج مؤمن بالله وزوجة مشركة.

وقد كفل الإسلام لأهل الكتاب الحرية الدينية فهم أحرار فى عقيدتهم وعبادتهم وإقامة شعائرهم فى كنائسهم ولهم أن يجددوا ما تهدم منها وأن يبنوا جديداً ولهم دق نواقيسهم إيذاناً بصلاتهم ولهم إخراج صلبانهم فى يوم عيدهم .

ولم يحدث فى زمن الفتح أن هدم المسلمون كنائس أهل الكتاب أو حملوهم على الإسلام أو اضطهدوهم اضطهاداً دينياً أو سياسياً يقتسرهم على أن يعتنقوا الإسلام وسيلة للنجاة .

وفى مصر أعطى عمرو بن العاص أهلها الأمان على كنائسهم وصلبهم .

كما أن مال الذمى مصون كمال المسلم قال صلى الله عليه وسلم « من أخذ شبراً من أرض بغير حق طوقه يوم القيامة من سبع أرضين » .

وأوصى بهم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما .

وقد أباح الإسلام للمسلمين أن يعاملوا الذميين جميع المعاملات المباحة ولهم أن يضيفوهم ويستضيفوهم وأن يبادلوهم الهدايا .

وللمسلم أو الذمى خمس الركاز الذى يعثر فى غير ملك لأحد وللدولة أربعة أخماسه «والركاز ما يوجد من ذهب أو فضه أو جواهر أو ثياب فى غير ملك أحد» .

وبعد ... فإلى كل مسلم يدعو إلى الله على بصيرة أن يضع أمامه تلك الحقيقة وهى دقيقة دقة الفرق بين العبقرية والجنون إنها الفيصل بين الدعاة والقضاة فنحن إزاء رسالة الإسلام دعاة ندعو إلى الله على بينة ومحجة بيضاء فى إطار إسلامى رسمه العلى الأعلى فى قوله (قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى) .

وما كان الرسول صلى الله عليه وسلم فى دعوته إلا مبعوثاً من قبل العناية الإلهية ليتمم مكارم الأخلاق ويغسل النفوس من أدرانها ، وأرجاسها بماء هو أطهر فى حقيقته من السحابة فى سمائها . وما أعظم بناء النفوس إنه الأمنية التى ينشدها كل داعية فإذا ما أهملنا هذا الجانب إلى غيره وجدنا أنفسنا فى متاهات لا شأن لنا بها .

هذا عمل الداعية أما عمل القاضى فإنه انشغال بإجراء الأحكام الشرعية وتطبيقها على وقائع فردية يحققها ويستجلى مشكلها ويستوضح غامضها ويتثبت مما دق من جوانبها وخفى من أحداثها ويسمع شهود الحال ويطلع على الوثائق والأوراق ويفسح لأطراف الخصومة المجال ليدلى كل منهم بحجته . كل ذلك طبقاً لنظم مقررة تحدد الأدلة وتقوم البينات . ثم هو بعد استنفاذ ذلك كله واستفراغ جميع جهده يطبق حكم الله تعالى على ما ثبت لديه من وقائع . وقد أدبنا سيد قضاة الأرض عليه الصلاة والسلام

فى ذلك بأسمى وأجل ما يتعين أن يكون عليه القاضى من حرص واستيثاق واستجلاء للواقعة المعروضة محلا للحكم الشرعى — أخرج عن سليمان ابن يزيد عن أبيه قال : جاء ماعز بن مالك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : طهرنى قال عليه السلام : « ويحك ارجع استغفر الله وتب » قال : فرجع غير بعيد ثم جاء فقال يا رسول الله طهرنى : فقال له مثل ذلك حتى إذا كانت الرابعة قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فيم أطهرك » ؟ قال : من الزنا . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أبه جنة » فأخبر أنه ليس بمجنون . وفى رواية أنه عليه السلام أرسل إلى قومه فقال : « أتعلمون بعقله بأساً ؟ أتنكرون منه شيئاً » فقالوا ما نعلمه إلا وفى العقل من صالحينا قال عليه الصلاة والسلام : « أشرب خمراً » فقام رجل فاستنكهه فلم يجد ريح الخمر فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « أزنيت » ؟ قال نعم وفى رواية ابن عباس للواقعة أنه عليه الصلاة والسلام قال لماعز « ويحك لعلك قبلت أو غمزت أو نظرت » قال : لا فأمر عليه الصلاة والسلام به فرجم .

وفى واقعة الأسلمى سأله عليه السلام « هل تدرى ما الزنا قال : نعم أتيت منها حراماً مثل ما يأتى الرجل من أهله حلالا » .

فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتثبت قبل إنفاذ الحكم الشرعى من صحة إقرار المقر — والإقرار هو سيد الأدلة وأقواها وكل دليل آخر دونه فى القوة — ويتأكد من فهم المقر للمعنى الشرعى لكلمة الزنا وأنه غير جاهل به ولا مخطىء فيه كما يتثبت من سلامة عقله وأنه حال إقراره عالم عاقل لما يقر ويعترف به لا يشوب عقله آفة دائمة أو عارضة طارئة .

نصيحـــة وإرشـــاد

أما النصيحة فعلى كل من يدعو إلى الله أن يدرك هذا المعنى العميق المستقر فى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم الدين النصيحة قالوا لمن يا رسول الله ؟ قال لله ولكتابه ولرسوله والأئمة المسلمين وعامتهم إذن فليس هناك من هو فوق النصح وليس هناك من هو أكبر من التوجيه إلى طريق الصواب والناس بخير ما تناصحوا ويوم نرفض النصح ولا نستمع إلى الناصحين يومها يكون الطامة الكبرى كما أخبر العلى الأعلى بذلك حكاية عن نبيه صالح . فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين . أما الإرشاد فقوله صلى الله عليه وسلم إذا أراد الله بعبد خيراً فقهه فى الدين وزهده فى الدنيا وبصره بعيوبه كأنى بك يا رسول الله تخاطب فينا ما نشكوه فى تلك الآونة من أدواء فكم من إناس يعلمون قبل أن يتعلموا ويقولون قبل أن يعلموا من هنا جاء القول الحكيم « إذا أراد الله بعبد خيراً فقهه فى الدين » ثم على الداعية أن يتجرد لله فى دعوته وأن لا يسمح للدنيا أن تقتحم عليه أسوار نفسه ومن هنا يأتى التزهيد فيها .

ثم يأتى الركن الثالث من أركان الإرشاد النبوى السديد (وبصره بعيوبه). ثم يبصر الإنسان بما فيه من عيب خاصة إذا كان داعية فقد تبوأ مكانه عند

الله عظيمة لأنه يومذاك سينتفى عنه الكبر والغرور وسيكون من المنتفعين بنصائح الغير وتلك قمة العظمة .

كان الإمام أبو حنيفة — رضى الله عنه-يقول : يضيع العلم بين الكبر والحياء .

لقد دبت فينا الفرقة معشر المسلمين وانقسمنا شيعاً وفرقاً وأحزاباً وهذا مكمن الداء وعلة العلل فكيف الوصول إلى طريق الحق وقد تعصب كل منا لفريقه تعصباً يدعو إلى الحزن والأسى على ما صار إليه المسلمون . إن الوصول إلى الطريق الحق الذى يرضى الله تعالى أن نطرح ما بيننا من خلافات وراءنا ظهرياً وأن نتواضع لله تعالى فالموت يعمنا والقبر يضمنا والقيامة تجمعنا وإلى الله مرجعنا فيحكم بيننا وهو خير الحاكمين ويجب أن نعلم أن كل ما يضر الدين إنما يزيد من مسئوليتنا أمام الحق جل جلاله .

وهناك قاعدة ذهبية كان كبار المصلحين الإسلاميين يلحون فى العمل بها كلما تناحر الداعون إلى الله وتحزبوا وتفرقوا كانوا يقولون نعمل فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه وهذه القاعدة تنبض بالخير والصدق والإخلاص فما من شك أن الجميع يؤمن بالله ربا ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولا يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ويؤمن بالقدر خيره وشره ولا ينكر أمراً

معلوماً من الدين بالضرورة لا يستحل ما حرم الله ولا يحرم ما أحل الله اعتقاداً . إذا كنا كذلك فهل من أجل خلافات فرعية يلعن بعضنا بعضاً وينبذ بعضنا بعضاً من أجل فرعيات يمكن الاتفاق عليها وتبين وجه الحق فيها إذا خلصت النيات وتجردت القلوب .

أيها العاملون فى مجال الإسلام وأيها المسلمون أجمعون إن الله تعالى تنادى عليكم :(ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات) .

وينادى عليكم (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين) .

وينادى (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون) .

هذا ما كنت أود أن أدعو إليه على صفحات هذا الكتاب سائلا الله جلت قدرته أن ينفع بما جاء فيه وأن يفقهنا فى الدين ويزهدنا فى الدنيا ويبصرنا بعيوبنا إنه نعم المولى ونعم النصير وبالإجابة جدير وصلى الله على البشير النذير سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

يوم الجمعة ٥ شعبان ١٤٠٢ هـ　　　　عبد الحميد كشك

١٩٨٢/٥/٢٨

حينما بدانا نشر هذه السلسلة من كتب فضيلة الشيخ كشك غفلنا من ذكر تسلسل حياته .. لأنه غنى عن التعريف .. ولكن استجابة لرسائل القراء التي تصلنامن مختلف أنحاء العالم الاسلامى والتى تطالبنا بمعرفة حياة الداعية الكبير نقدم لهم حياة المؤلف فى سطور :

● عبد الحميد عبد العزيز كشك .

● من مواليد بلدة شبراخيت محافظة البحيرة عام ١٩٣٣ .

التحق بجمعية تحفيظ القرآن الكريم ، حيث اتم حفظه للقرآن وهو فى الثانية عشرة من عمره .

● التحق بالقسم الابتدائى بمعهد الاسكندرية الدينى .

● وبعد حصوله على الشهادة الابتدائية ، انعم الله عليه بفقد البصر ، فواصل الطريق فى طلب العلم بجد ومثابرة ، بعد ما قضى حولين من عمره يطلب العلاج ، ولكنه حمد الله على قدره ، فان الله يعوض عن نور البصر ذكاء البصيرة .

● التحق بمعهد القاهرة الثانوى ، وكان الأول على فرقته دائما ، وحصل على مجموع مائة فى المائة عندما انتقل من الثالثة الى الرابعة فى القسم الثانوى ، وفى الشهادة الثانوية حصل على مجموع ٩٨ر٥٪ .

● التحق بكلية أصول الدين ،حيث حصل على الشهادة العالية ، وكان ترتيبه الأول ، ومثل الأزهر الشريف فى عيد العلم عام ١٩٦١ .

● حصل على شهادة العالية مع تخصص التدريس العالى .

● عمل اماما وخطيبا بمساجد وزارة الأوقاف .

النـــاشر

فهـــرس

صفحة

رقم الايداع ١٩٨٣/٣٤٠٦

الترقيم الدولى ٩٧٧-١٣٦-٠٠٩-٤ ISBN



بسم الله الرحمن الرحيم

الشيخ عبد الحميد كشك الداعية الاسلامى قدم الى مريديه ومحبيه فى العالم الاسلامى العديد من الأحاديث المسجلة التى تحمل الدعوة الاسلامية الخالصة الصادقة الجريئة .

والعصر الذى نعيشه والأجيال الصاعدة التى تمزقها الحيرة بين الخطأ والصواب يدعونا الى أن نعيش الدعوة الاسلامية تاريخها وحقائقها بقدر ما نعيش واقعها ومسيرتها .

واسهاما فى ملء فراغ يشعر به الجميع فى هذا المجال نقدم مكتبة الشيخ عبد الحميد كشك فى :

١ ــ طريق النجاة
٢ ــ البطولة فى ظل العقيدة
٣ ــ رياض الجنة
٤ ــ نفحات من الدراسات الاسلامية
٥ ــ بناء النفوس
٦ ــ أصحاب النفوس المطمئنة
٧ ــ حياة الانسان
٨ ــ مع التوحيد والأخلاق
٩ ــ اليوم الحق
١٠ ــ صور من عظمة الاسلام
١١ ــ ارشاد العباد
١٢ ــ أضواء من الشريعة الغراء
١٣ ــ البعث والجزاء
١٤ ــ شفاء القلوب
١٥ ــ حقائق وحديث عن الروح
١٦ ــ حديث من القلب
١٧ ــ الصلاة رأس العبادات
١٨ ــ الاسلام وأصول التربية
١٩ ــ الوصايا العشر فى القرآن الكريم
٢٠ ــ ورثة الفردوس
٢١ ــ الهدى والنور
٢٢ ــ جدد السفينة
٢٣ ــ أعد الزاد
٢٤ ــ الفتوحات الربانية
٢٥ ــ رحلة الى الدار الآخرة
٢٦ ــ صم عن الدنيا وافطر على الموت
٢٧ ــ الصراع بين ال
٢٨ ــ اخلص العمل
٢٩ ــ صاحب الرسا
٣٠ ــ سياحة مبار
٣١ ــ فضل القرآن
٣٢ ــ مصارع الظالم
٣٣ ــ الصلح مع ال
٣٤ ــ الناس بخير

(الثمن ٢٥) قرشا